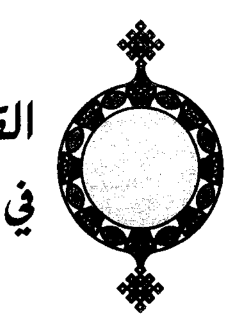

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية



القلاع والتحصينات الدفاعية في بلاد الرافدين

أ. د. عبد العزيز حميد صالح *

من البديهي أنّ للإنسان حقّ الدفاع عن نفسه وعائلته وقبيلته أينما كان وفي أي عصر من العصور. ولا شكّ أن مثل تلك الأفكار قد راودت بني البشر منذ العصور الواغلة في القدم. فالمؤكّد أنّ الإنسان فكر في إيجاد الوسائل الكفيلة التي تضمن له السلامة والأمان من الحيوانات المفترسة التي كانت تروم مهاجمته والفتك به أو بأفراد عائلته، فلجأ أولاً إلى وضع الأحجار أو الصخور الكبيرة أمام باب الكهف الذي يقطنه فضلا عن تناوب عدد من أفراد عائلته رجالاً أو نساء على الحراسة.

وعندما ظهرت أولى القرى التي تحوّل بعضها إلى مدن فيما بعد، بات موضوع حماية المجتمعات البشرية وكذلك حيواناته الداجنة من الأخطار الخارجية من أولوياته الأساسية.

وقد كانت الخنادق أول ضروب حماية جماعية عرفها أو لجأ إليها الإنسان بعد ظهور القرى أو المدن الصغيرة وكانت تعتبر أبسط أنواع التحصينات للحماية الجماعية. وغالبًا ما يكون عرض تلك الخنادق وعمقها معقولاً لتفي بمثل ذلك الغرض.

أما أقدم التحصينات حول المدن والمستوطنات في بلاد الرافدين التي ما تزال قيد الاكتشاف فكانت في موقع "الصوان" الواقع إلى الجنوب قليلا من مدينة سامراء الحالية،[1] وهو يرتقي إلى أواسط الألف السادس قبل الميلاد.[2] ووجد المنقّبون أن هذا المستوطن أو المدينة الصغيرة كان يحيط بها سور يتقدمه خندق لا يزيد عرضه في أعلاه عن مترين ونصف المتر وفي أسفله عن نصف متر.

* أستاذ في جامعة بغداد.

1 - لا نعرف طبعا اسم المدينة أو المستوطن الأصلي حيث سبق هذا المستوطن تاريخ ظهور بدعة الكتابة بحوالي ثلاثة آلاف سنة على الأقل.

2 - دوني جورج، يوحنا، «عمارة الألف السادس قبل الميلاد في تل الصوّان»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد 1986، ص 55.

لقد بني هذا السور موازيًا للخندق وحفرت أسسه في أرض حصوية وشيّد من اللبن المربع الكبير ويبلغ سمكه تسعين سنتيمترًا، وذكر أن أعلى ارتفاع لما تبقّى منه لا يتجاوز المتر الواحد. ولا شكّ أن ارتفاعه في الأصل كان يزيد على خمسة أمتار أو ربما يصل إلى ستة أمتار.

كانت لسور هذه المدينة الصغيرة دعامات ساندة من الداخل، المسافات بينها غير متساوية. أمّا من الجهة الخارجية للسور فهناك دعامتان فقط تحفّان بالمدخل الشرقي. وجاء في تقرير المنقّبين أيضا أنه تم الكشف في الطبقة الثالثة من هذا السور عن أبراج واضحة المعالم.[3]

لقد وجد أنّ هذا السور الدفاعي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات هي الجهة الشمالية الغربية والجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية.[4] وتبيّن أن للسور ثلاثة مداخل؛ إثنان في الضلع الشمالي الغربي، وثالث عند الزاوية الشرقية في الضلع الجنوبي الشرقي. كما لوحظ أن واحدًا من المدخلينْ في الضلع الشمالي الغربي هو من النوع المزوّر، إذ ينبغي على الداخل منه أن يجتاز أولا ممرا ثم يتجه نحو الشمال في زاوية قائمة كي يجتاز إلى داخل المدينة أو المستوطن.[5]

ومن التحصينات القديمة جدا في العراق التي تم اكتشافها سور دفاعيّ واضح المعالم في موقع حلف، وهي ترتقي في الزمن إلى الألف الخامس قبل الميلاد.[6]

ويلي ذلك في الزمن السور المشيّد باللبن المجفّف في الشمس[7] الذي يلفّ حول مدينة (الوركاء)،[8] وهو يعتبر من أكمل الأسوار الدفاعية السحيقة في القدم في عموم بلاد الرافدين وأكثرها طولا حيث يبلغ طول محيطه حوالي تسعة كيلومترات ونصف وعرضه

3 – بهنام، أبو الصوف، «التنقيبات في تل الصوان»، **مجلة سومر المجلد 24**، 1968، ص39.

4 – يبلغ طول المتبقي من السور حوالي 41,5 مترًا بالنسبة للضلع الشمالي، وحوالي 54,5 مترًا بالنسبة للضلع الشمالي الغربي، وحوالي 42 مترا بالنسبة للضلع الجنوبي الشرقي. (سعيد، مؤيد، «العمارة العسكرية في العراق القديم»، **موسوعة الجيش والسلاح**، بغداد 1988، الجزء الثاني، ص 183).

5 – تقي، الدباغ، **المصدر السابق**، ص 43.

6 – وليد محمود، الجادر، «العمارة حتى عصر فجر السلالات»، **موسوعة حضارة العراق**، بغداد 1985، ج 3، ص 89.

7 – الجادر، **المصدر السابق** ، ص 110.

8 – إنها مدينة أثرية مهمة جدا تقع في جنوب العراق. وقد أطلق اسم الوركاء أيضا على عصر حضاري امتد تاريخه من حدود سنة 3800–3100 ق.م. امتاز بابتكارات حضارية مهمة جدا بالنسبة للبشرية (مودكارت، أنطوان، **الفن في العراق القديم**، مترجم، بغداد 1975، ص 20).

أربعة أمتار ونصف المتر، وهو مدعوم بعدد كبير من الأبراج الدفاعية.[9] وهو يرتقي إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

ولا شكّ أن أساليب التحصينات تختلف باختلاف المناطق وتخضع أيضا إلى تطوّر فنّ العمارة في المراحل التاريخية والحضارية المتلاحقة. ومن البديهي أن اختلاف المواد الإنشائية المتوفّرة في المنطقة يؤثر تأثيرًا كبيرًا على شكل تلك التحصينات وتصميمها.

وعندما ظهرت الإمبراطورية الأكدية (2210–2350 ق.م) يمكن أن نلمس طفرة نوعية كبيرة في التحصينات الدفاعية من خلال أسوار المدن الأكدية المندرسة والحصون المستقلة. وعلى الرغم من أن العاصمة الأكدية، وهي مدينة أكد، لم يتم الكشف عن موقعها حتى الآن ويظنّ أن موقعها لا يبعد كثيرا عن موقع مدينة بغداد الحالية،[10] إلا أنها كانت بلا شك محمية بسور.[11]

ويمكن أيضا أن نستشهد بتقدّم الأساليب الدفاعية عن المدن والمستوطنات البشرية في بلاد الرافدين بالأسوار الدفاعية في موقعي مدينة براك الواقع على ضفة نهر الخابور اليسرى داخل الحدود السورية اليوم،[12] وأيضا المدينة الأكدية في موقع "تل طاية" قرب مدينة تلعفر في شمال العراق.[13]

---

9 – ويجدر القول أنه ربما سبقت فلسطين بلاد الرافدين في ظهور الأسوار الدفاعية. فقد ظهر أن قرية في موقع أريحا أو بالقرب منها كان يحيط به سور دفاعي يعود إلى عصر يسبق ظهور بدعة صناعة الفخار في الشرق الأدنى حيث يرتقي على ما يبدو إلى أوائل الألف السابع قبل الميلاد. لقد وجد أن ثخن هذا السور يصل إلى حوالي المترين. لقد تبيّن من خلال التنقيبات الأثرية في الموقع أن هذا السور قد أعيد بناؤه ثلاث مرات عبر تاريخه الطويل. كما تبيّن أنه كان يحيط بحائط به من الخارج خندق محفور في الأرض الصخرية عرضه تسعة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار. وفي الجانب الغربي منه وجدت آثار برج ضخم يبلغ ارتفاع بقاياه حوالي تسعة أمتار وقطره من الأعلى تسعة أمتار أيضا.

10 – يعتقد أنّ موقعها قريب جدا من موقع مدينة بغداد، وهناك من يظن أنها تقع أسفل مدينة بغداد.

11 – فقد جاء في قصيدة قالها أحد الشعراء السومريين في العاصمة أكد:

« في تلك الأيام كانت مساكن أكد مملوءة بالذهب

بيوتها الساطعة اللامعة مملوءة بالفضة

عجائزها وُهبنّ سداد الرأي

وشيوخها وُهبوا فصاحة اللسان

البلاد كلها تعيش في أمان

كانت أسوارها تطاول السماء كالجبال الشاهقة،

إلى آخر القصيدة» (علي، فاضل عبد الواحد، «وثيقة حرب التحرير للملك السومري أوتوحيكال»، موسوعة الجيش والسلاح، الجزء الأول، ص 154).

12 – طه، باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات**، بغداد 1955، الجزء الأول، ص 126.

13 – مؤيد، سعيد، المدينة منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي الحديث، **موسوعة حضارة العراق**، بغداد 1985، الجزء الثالث، ص 337–336.

إنّ بقايا سور المدينة الأخيرة يظهر لنا تطورا أو قفزة نوعية واضحة جدًا في تصميم الأسوار. إنه سور من النوع الدائري المقفل. والمدخل هنا عبارة عن بناء بارز شبه مكعّب وهو في الوقت نفسه حجرة خاصة بالحراسة. وبوجود مثل هذه المداخل يتأكد لنا بأن العصر الأكدي قد أرسى شكل النموذج التقليدي للبوابة المحصنة ضمن السور الدفاعي للمدينة العراقية القديمة.[14]

ومن العصر السومري الثاني، ويعرف عند المختصّين بعصر سلالة أور الثالثة، يعدّ سور مدينة أور من أهم الإنجازات الدفاعية في ذلك العصر. ومن المعروف أن هذه المدينة المهمة قد شيّدت فوق مصطبة مرتفعة اصطناعية. لقد قام بتشييد هذا السور الملك السومري أورنمو (2113–2096 ق.م.)، شيّده من اللبن بعرض 22 مترًا عند قاعدته وبارتفاع أكثر من ثمانية أمتار وبواجهة منحدرة إلى الخارج. أما من جهته الداخلية فقد كان عموديًا.

ومن العصر البابلي القديم تعدّ أسوار مدينة شادويوم (تل حرمل) في منطقة ديالى من أفضل النماذج على الأسوار الدفاعية في ذلك العصر. وقد تبيّن من خلال التنقيبات أن عرض السور كان بحدود ستة أمتار يتميز بوجود بروزات واضحة على مسافات معقولة من جهتيه الخارجية والداخلية (recesses) تعطيه شكل الأبراج، سواء أكان ذلك من الداخل أو من الخارج. ولم يتمكن المنقّبون من معرفة الارتفاع الحقيقي للسور إلا أنه لا يمكن أن يقلّ بأي حال من الأحوال عن ضعف ثخن السور، أي أن عُلوّه في الهواء كان يتراوح ما بين 10–12 مترًا.[15]

ومن البديهي أن يعدّ العصر الأشوري أزهى العصور القديمة في بلاد الرافدين من حيث التحصينات الدفاعية وبخاصة أن الأشوريين أمة جبلت على الحرب والفتوحات فباتت كثيرة الأعداء في المنطقة.

تقع جميع المدن الأشورية العظام في شمال العراق، وقد خضعت كبرياتها إلى التنقيبات الأثرية الموسّعة منذ أواسط القرن التاسع عشر وما تزال تجذب أنظار المنقّبين لما يمكن أن تكشف عنها هذه المواقع من جليل الآثار سواء المعمارية منها أو المنقولة. ويكفي أن نشير هنا أنه على الرغم من أن مدينة نمرود (كالح)، التي تقع قريبا من ضفّة نهر دجلة الشرقي على بعد 35 كيلومترًا جنوب الموصل، خضعت للتنقيبات منذ أواسط القرن

14 – المصدر السابق، ص 186.

15 – المصدر السابق، ص 187.

التاسع عشر وبشكل مستمر، لما لا يقلّ عن أربعين عاما. فقد اكتشف فيها في سنة 2002 واحد من أعظم الكنوز الذهبية في العالم يعرف اليوم بكنز نمرود الذهبي، وهو محفوظ في المتحف العراقي.

ولا نريد هنا أن نتناول بالبحث جميع المدن الأشورية الكبرى ولكن سوف نكتفي بمدينتين فقط. الأولى وهي أقدمها، مدينة "أشور"، والثانية وهي أشهرها مدينة "نينوى".

تقع أشور فوق ربوة مرتفعة من الأرض على الضفة الغربية من نهر دجلة وتبعد مسافة 110 كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الموصل، وتعرف خرائبها اليوم بـ"القلعة" أو "قلعة الشرقاط". وعلى الرغم من أن هذه المدينة أصغر العواصم الأشورية مساحة حيث لا تزيد في مجملها عن عُشْر مساحة نينوى على سبيل المثال، فقد كانت لها أهمية دينية كبيرة عند الأشوريين حيث دفن فيها مشاهير ملوكهم، وتقام فيها عادة مراسيم تتويج الملوك فضلا عن احتفالات رأس السنة. ومن المعروف أيضا أنها كانت ولقرون طويلة، مركزا لعبادة "أشور" إله الأشوريين القومي الرئيس.

لقد كشفت التنقيبات الأثرية التي تمت في القرن التاسع عشر أنه كان يحيط بها سوران محصّنان بالأبراج الضخمة فتحت فيهما ثلاث عشرة بوابة، يحف بكل بوابة منها برجان.[16] ولم يشيّد السوران في وقت واحد. السور الأقدم هو الداخلي، في حين أن السور الخارجي قد أقيم في وقت لاحق. يحيط السور الداخلي المدينة من جهتها الشمالية والشرقية ثم يستدير على شكل قوس، فكان يضمّ في داخله إذن المدينة القديمة. أمّا السور الخارجي فهو يضم في داخله ما يعرف عند الأشوريين بالمدينة الجديدة.

لقد شيّد كلا السورين باللّبن المجفف في الشمس، وكانت بواباته الثلاث عشرة أكثر ارتفاعا من السور نفسه. ويحيط بالسور الخارجي خندق عميق يأخذ ماءه من نهر دجلة أو من ترعة منه. ويبلغ عرض الخندق أحد عشر مترًا وعمقه يزيد على الخمسة عشر مترا.

يبلغ ثخن السور الخارجي عند القاعدة حوالي أحد عشر مترا وقد كان هذا السور مدعومًا بعدد كبير من الأبراج مستطيلة المقطع يبلغ عرض كل واحد منها ثمانية أمتار

16 – كان السور الداخلي يسمى (دورو) في حين أطلق على السور الخارجي اسم (شلخو).

وتبرز عن سمت الجدار بنحو 3 إلى 4 أمتار. والمسافة بين برج وآخر هي بحدود ثلاثين مترًا.

ومن أشهر بوابات مدينة أشور البوابة الغربية المزدوجة، وقد كانت في الواقع بوابتان تقع إحداهما خلف الأخرى وتسهّلان الدخول أو الخروج من المدينة عبر السورين الخارجي والداخلي معًا.

ومن البديهي أن يكون الاهتمام ببوابات السور كبيرا حيث بلغ عرض فتحات بعضها حوالي خمسة أمتار. وكانت لتلك المداخل أبواب خشبية ثقيلة ومتينة إلى أبعد حدود المتانة، وهي ذات مصراعين يبلغ عرض المصراعين معا حوالي خمسة أمتار. والمصراعان يرتكزان على صنارات من الصخر الصلد تتحمّل ثقل الباب الذي يدور عليها. وتكون البوابات مرتفعة عادة عن الأرض المجاورة من الخارج، ولذلك وجد المنقّبون أن هناك منحدرًا ترابيًا بعرض 5,6 أمتار يربط البوابة بالشارع الواقع خارج المدينة.

لقد أجريت بعض التعديلات على أسوار مدينة أشور المزدوجة في العهد الأشوري الأخير حيث أضيفت قلعة كبيرة عند الزاوية الشمالية الغربية من المدينة تربط السور الداخلي بالسور الخارجي. وتحوّلت في هذه الحقبة إلى سور متدرِّج بمستويين يحصران بينهما ممرًا عريضًا مرتفعًا يكاد أن يكون شارعا يسمح حتى باستعمال العربات الحربية السريعة وتنقّلها بسهولة أثناء الحصار.

هذا كل ما يتعلّق بالسور الخارجي، أما السور الداخلي فلم يتجاوز ثخنه 5,3 أمتار. لقد تميّز هذا السور بوجود ركائز قوية بعرض 5,3 أمتار وعمق 5,2 أمتار. ورتّبت هذه الركائز على مسافات ثابتة هي 15 مترًا و5 أمتار. ولا شك أنه كانت لهذه الركائز فائدة مشابهة تقريبا للفائدة المتوخّاة من الأبراج الدفاعية الداعمة للسور الخارجي.[17]

لقد شيّد الملك الأشوري توكلتي نينورتا الأول (1244–1208 ق.م.) في حدود سنة 1228 قبل الميلاد مدينة أو عاصمة جديدة قبالة مدينة أشور القديمة على الضفة الشرقية من نهر دجلة وأحاطها بسور خارجي وخندق مائي عميق. كما أحاط منطقة المعابد الرئيسية وكذلك القصور الملكية بسور داخلي بحيث انقسمت المدينة نتيجة لذلك إلى قسمين متلاصقين. وقد تم التنقيب في قسم من السور وتمّ التأكّد من وجود عدّة

17 – المصدر السابق، ص 193.

ببوابات منها البوابة الجنوبية التي جرى التنقيب فيها بشكل مكثّف والتي لم تكن لتختلف كثيرًا عن البوابات التي كانت موجودة في أسوار المدن البابلية والكشية وغيرها.

شيّد هذا السور فوق الأرض بشكل مباشر دون الاستعانة بالأسس. وكما هي العادة في العراق فقد استعملت في بنائه مادة اللبن غير المشوي، وكان ثخن السور يبلغ هنا سبعة أمتار. وقد عثر المنقّبون على بقايا جدران ترتفع أربعة أمتار في بعض الأماكن. ولا بدّ أن السور كان يبلغ في الارتفاع ما يتراوح بين **14–16** مترًا.

وكان سور هذه المدينة الملكية مزوّدا بعدد ليس بالقليل من الأبراج الدفاعية المستطيلة المقطع بعرض يبلغ خمسة أمتار تبرز عن سمت جدار السور بحدود ثلاثة أمتار. ليس هذا فقط، بل يلاحظ أن نفس الأبراج تبرز إلى الداخل بحدود متر ونصف المتر. وبذلك يكون ثخن السور عند الأبراج بحدود أحد عشر مترا ونصف المتر. ومن الملاحظ أن المسافة بين برج وآخر تزيد قليلا عن أربعة وعشرين مترا. ومن البديهي والحالة هذه أن يكون العدو المهاجم في متناول نشابات المدافعين من أعلى السور.

ولا بدّ من القول هنا أن مدينة أشور وتحصيناتها الدفاعية تدل بشكل قاطع على أن الأشوريين كانوا على دراية تامة بمتطلبات الدفاع عن المدن الكبرى وفهمها جيدًا فضلا عن متطلبات الهجوم على المدن المحصنة وحصارها لفترات زمنية طويلة.

إنّ متطلبات الدفاع عن المدن باتت أكثر تطوّرًا وتعقيدًا منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد بسبب ظهور أسلحة حصار ثقيلة صارت الجيوش المهاجمة معها قادرة على اقتحام أسوار المدن أو هدمها أو إحداث ثغرات خطيرة فيها، فضلا عن ظهور دول قوية قادرة على تجنيد أعداد كبيرة جدًا من الجند والمطاولة لفترة طويلة من الزمن.

ونتيجة لذلك أدرك الأشوريون أهمية التحصينات الدفاعية حيث استعانوا بالخنادق الجافة التي تحيط بالمدن والتي تملأ بالماء عند الحصار. كما قاموا بتشييد الأسوار العالية فوق جدران صخرية وأقاموا أبوابًا ثقيلة عليها تقفل من الداخل لا يستطيع غلقها أو فتحها إلا عدد كبير من الجند المدربين تدريبًا خاصًا. كذلك فتحوا في الجزء العلوي من الأسوار شقوقًا شاقولية استخدمت لرمي السهام على الجند المغيرين على تلك الأسوار.[18] ولا بدّ أن الأشوريين قد أفادوا من تجربة حصار المدن قاموا هم بفرضها مثل حصارهم لمدينة أورشليم لمدة تنوف على العامين دون أن يتمكنوا من اقتحام أسوارها المنيعة.

18 – المصدر السابق، ص 340.

إنّ مدينة أشور الأثرية اليوم بما في ذلك أسوارها وقلاعها وقصورها، تتمتع بحماية منظمة اليونسكو الدولية، كونها مسجّلة على قائمة التراث العالمي. إلا أنها وضعت عام 2003 على قائمة المواقع التراثية المهددة بالخطر، وما يزال الموقع على تلك القائمة، والسبب في ذلك هو أن الحكومة حينذاك قررت تشييد سدّ عظيم قريب من هذه المدينة ينتج عنه بحيرة كبيرة لري الأراضي الزراعية تغطي المدينة برمتها. إلا أنه تقرر لاحقًا، لحسن الحظ، التوقف عن المضي في مشروع الري هذا، وبذلك سلمت المدينة على الأقل في السنوات الخمس القادمة من خطر الغمر. وسوف تعمل الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية جاهدة بالتعاون مع منظمة اليونسكو على إقناع الحكومة العراقية في أن تصرف النظر نهائيا عن هذا المشروع حماية لمدينة أشور، التي تعد، بتسجيلها على قائمة التراث العالمي، تراثًا إنسانيًا.

أما مدينة نينوى التي تعدّ واحدة من أشهر مدن العالم القديم وثالث العواصم الأشورية من حيث التسلسل الزمني، والتي ورد ذكرها في التوراة، فوصفت بأنها "المدينة العظيمة".[19] وفي العهود الإسلامية ذكرها ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي بقوله إنها مدينة: "آثارها بيّنة وأحوالها ظاهرة وسورها مشاهد".[20]

تقع بقايا نينوى على الجانب الشرقي من نهر دجلة قبالة مدينة الموصل الحالية.[21] وقد بلغت قمة مجدها وازدهارها في عهد الإمبراطورية الأشورية الأخير ولا سيما في عهد الملك سنحاريب (705–681 ق.م.) وأبنه أسرحدون (680–669 ق.م.) وحفيده أشور بانيبال (668–626 ق.م.). وكانت نهاية نينوى السياسية عام 612 قبل الميلاد على أيدي الجيوش الميدية والكلدية.[22]

وتعد تحصينات مدينة نينوى أقصى ما توصلت إليه القدرة الأشورية على الدفاع عن النفس أو الحصانة الذاتية، فتمت إحاطتها بالأسوار من جميع جهاتها فضلا عن خندق دفاعي عريض وعميق.

19 – سفر يونان، الإصحاح 1– 4.

20 – أبو القاسم النصيبيني، إبن حوقل، صورة الأرض، بيروت 1979، ص 196.

21 – تدل التحريات الأثرية على أن الموقع كان من قرى عصور ما قبل التاريخ في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد، وتشير التنقيبات إلى استمرار السكنى فيها في العصور التالية. كما عثر في المدينة على آثار ترتقي إلى العصر الأكدي والى ما يعرف بـ «عصر سلالة أور الثالثة».

22 – عامر، سليمان، «الآثار الباقية»، موسوعة الموصل الحضارية، الموصل 1991، المجلد الأول، ص 519–518.

لقد كان سور نينوى مزدوجا شأنه شأن مدينة أشور، يبلغ طوله إثنا عشر كيلومترا، وهذا ما يجعله واحدًا من أطول الأسوار في العالم القديم في الشرق الأوسط. وقد شيّد القسم الأول منه، وهو السور الداخلي، باللبن. ويبلغ ثخنه حوالي خمسة عشر مترا. أما السور الخارجي فقد شيّد بالحجر المهندم المصقول وبثخن ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبا. ويرتفع السور في الهواء ما يزيد قليلا على سبعة أمتار، يعلوه صف طويل من الشرفات المسننة (parapets) التي كان يتخذها المدافعون في أعلى السور واقيات لهم من سهام الأعداء ويسمح لهم في الوقت نفسه بالنظر من خلال أسنانها إلى الأعداء وتوجيه السهام والقذائف إليهم.

ومن البديهي أن تتخلل السور من جهته الخارجية أبراج كثيرة. إنها هنا شأنها شأن جميع الأبراج في العصر الأشوري، مستطيلة المقطع تبرز قليلا عن سمت الجدار، تعلوها الشرفات المسنّنة أيضا. ومع الأسف لا يمكننا تحديد الارتفاع الحقيقي للسور الداخلي المشيد باللبن بشكل دقيق لعدم بقاء أي جزء منه على هيئته الأصلية الكاملة، والذي نراه أن ارتفاعه في الهواء لم يكن أقل من خمسة عشر مترا.

يلتصق الجزء المشيّد باللبن من السور بالغلاف الحجري إلا في الجزء العلوي حيث يفصل بينهما ممر ضيق نسبيا يبلغ عرضه ثلاثة أمتار. ومن الواضح أن هذا الممر قد أعدّ لسير الجنود والعربات الصغيرة. وتتخلّل جزء السور المشيّد من اللبن أبراج ضخمة إضافية ترتفع في الهواء أعلى من مستوى سطح السور، ليصل إلى أكثر من سبعة عشر مترا. لقد كانت تؤلف بلا أدنى ريب، خطًّا دفاعيًا إضافيًا لحماية المدينة من الأعداء المهاجمين.[23]

ولكن ومع كل ضروب الحماية المضاعفة تلك نتساءل: هل تمكّن ذلك السور المهول في العصور القديمة من إضفاء الحماية الكاملة على مدينة نينوى؟ الجواب كلا... لقد تمكن المدافعون عن نينوى من الاحتماء بالسور لبضعة أشهر فقط حيث سقطت المدينة بعدها بأيدي الغزاة الميديين والبابليين في سنة 624 قبل الميلاد لتهجر المدينة بعدها بأمد وجيز وتتحوّل إلى مدينة صغيرة ليست بذي شأن، ثم بعد ذلك إلى خرائب وتلول أثرية مرتفعة لم يتم الكشف عن أسرارها سوى في أواسط القرن التاسع عشر على يد المنقّبين الأوروبيين وعلى رأسهم القنصل الإنجليزي هنري لايارد.

23 – المصدر السابق، ص 520.

أمّا السور الأخير الذي كانت له أهمية خاصة في العالم القديم في بلاد الرافدين، فكان السور الذي يحيط بمدينة بابل الواقعة خرائبها على نهر الفرات على بعد حوالي مائة كيلومتر إلى الجنوب من مدينة بغداد.

وأمّا بالنسبة إلى مدينة بابل فلا نعلم شيئا عن أسوارها القديمة التي ترتقي إلى المملكة البابلية الأولى. ويعود السبب في ذلك إلى أن طبقات تلك الحقبة الزمنية مغمورة في المياه الجوفية التي حالت دون تمكن المنقّبين من التحرّي فيها. إن معرفتنا بأسوار المدينة وتحصيناتها تنحصر بتلك التي شيّدها الملك نبوخذنصّر في العهد الأخير من عهود الإمبراطورية الكلدية والتي لم تزد عن 140 سنة تقويمية حيث سقطت في سنة 539 قبل الميلاد.

لقد شيّد الملك البابلي نبوخذنصّر حول المدينة سورين يفصل بينهما فصيل عرضه أكثر من سبعة أمتار بقليل. يبلغ ثخن السور الداخلي ستة أمتار ونصف المتر، في حين يبلغ ثخن السور الخارجي أقلّ من أربعة أمتار بقليل. ويتقدّم السور الخارجي خندق يبلغ عرضه ثمانين مترًا ويبعد عن واجهة السور الخارجي بحوالي عشرين مترا. وقد رصفت حافته التي تحاذي الأسوار، بالآجرّ المفخور لمنع الرطوبة من الوصول إلى الأسوار والتأثير فيها. وهذا الخندق كله يأخذ ماءه من ترعة متصلة بنهر الفرات، وهناك ترعة أخرى كانت تعيد ماء الخندق إلى النهر مرة أخرى. ومن البديهي أن السبب في ذلك هو منع تأسّن الماء الموجود على الدوام داخل الخندق. وبهذا صار الخندق أشبه بنهر يحيط بالمدينة من جميع جوانبها يأخذ ماءه من الفرات ثم يعيده إلى الفرات.

لقد كانت مدينة بابل محاطة بثلاثة أسوار متعاقبة. السور الأول وهو الداخلي يبلغ ثخنه سبعة أمتار، وطوله حوالي ثمانية كيلومترات ومشيّد باللبن معزّز بالعديد من الأبراج الدفاعية. فالأبراج على السور الرئيس بعضها كبيرة يبلغ عرضها حوالي تسعة أمتار ونصف، وأبراج أصغر حجما يبلغ عرضها حوالي ستة أمتار ونصف المتر وجميعها ذات مقطع مستطيل.

لقد وزعت الأبراج على مسافات ثابتة تقريبا تبلغ أكثر قليلا من اثنين وخمسين مترا. وبذلك يكون مجموعها الكلّي مائة وخمسة وعشرين برجاً دفاعياً باستثناء الأبراج التي تكتنف المداخل.

أما بالنسبة إلى السور الداخلي والذي يبعد عنه بمسافة اثني عشر مترا فقط، فقد شيّد بالآجرّ المفخور، وكان ثخنه أقل قليلا من ثمانية أمتار، مدعوم بعدد كبير من الأبراج

عرض واجهتها حوالي تسعة أمتار ونصف، يبعد بعضها عن بعض حوالي ثمانية عشر مترًا فقط. والأبراج هنا تختلف عن شكل الأبراج الاعتيادية حيث أنها تبرز بحوالي ثلاثة أمتار من جهتي السور الأمامية والخلفية مما يجعلها أشبه بقلعة حصينة يخترقها من الجهتين امتداد السور الدفاعي الرئيسي عن المدينة.

لقد كان سور المدينة الرئيس على شكل منحرف غير متساوي الأضلاع شبيه بالمستطيل. ويبلغ امتداد الضلع الشمالي حوالي 2000 متر والشرقي 1600 متر والجنوبي 2600 متر والغربي 1500 متر. وبذلك يكون محيط السور الكلّي ثمانية كيلومترات وربع.[24]

كانت لهذه الأسوار المزدوجة ثمانية مداخل يكتنف كلّاً منها برجان لغرض الحماية. لقد أطلق على كل من تلك المداخل الثمانية اسم واحد من الآلهة المعترف بعبادتها في بابل. وكانت الشوارع التي تخترقها أو تمرّ من خلالها تفضي إلى الساحات الرئيسة أو كبرى المعابد في المدينة. ولا بدّ من القول أيضا إن هذه المداخل صمّمت لتكون مداخل للسورين معا الخارجي والداخلي.

القلاع في العراق القديم

تعدّ القلاع مظهرا مهما من مظاهر التحصينات الدفاعية عبر العصور المتعاقبة والمختلفة في كل مكان. ولقد عرف العراقيون القدامى القلاع وذلك عن طريق تحصين القصور الملكية والمعابد الرئيسة بالأسوار الدفاعية منذ العهود السومرية المبكرة وأهمها ما يعرف بعصور فجر السلالات الثلاثة (2800–2400 ق.م). غير أنه لم يظهر ما يدلّ على الحصون العسكرية المستقلة الواضحة المعالم إلا في حقب متأخرة نسبيًا. فمن المتفق عليه أن القلاع الحقيقية ذات المستلزمات الدفاعية الكاملة ظهرت في العصر الأكدي، أي بعد نهاية عصر فجر السلالات. والسبب في ذلك هو أنّه في تلك الحقبة من الزمن ظهرت أولى الدول الكبيرة في بلاد الرافدين.

إنّ أفضل مثال على القلاع الكاملة من هذا العصر، هو حصن الملك الأكدي نرام سن (2291–2255 ق.م). إنّه الحصن الذي كشفت عنه التنقيبات الأثرية في موقع "تل براق" في أعالي الفرات. وهو حصن ذو تخطيط مربّع له مدخل واحد يقع في جهته

24 – المصدر نفسه، ص 196.

الغربية يكتنفه برجان، طول كل ضلع من أضلاعه حوالي سبعين مترا. إن الحصن مقسّم إلى عدد من الساحات الكبيرة وبعض الحجرات. والحصن الذي لا تقلّ مساحته عن 2000 متر مربع مشيّد باللبن، ثخن جدرانه حوالي عشرة أمتار، إنه ذو ارتفاع شاهق جدا يبلغ حوالي عشرين مترا.[25]

وهناك حصن أكدي آخر هو موقع القصر القديم في مدينة أشور، يرتقي إلى العصر الأكدي ويعتبر نموذجا آخر للقلاع المحصنة من العصر الأكدي. وهو لا يختلف في تصميمه كثيرًا عن حصن نرام سن حيث يضمّ ساحة رئيسة تقارب مساحتها مساحة الساحة الرئيسة في الحصن السابق. وتتوزّع حجرات الحصن على جانبي الحصن وتطل على ساحات صغيرة يبلغ عددها ثماني ساحات، أهمها الساحة الشمالية الشرقية التي تمتد على طول الضلع الشرقية للحصن.

ومن البديهي أن يكون الأشوريون متفنّنين في إقامة الحصون في بلادهم. فقد بدأ في هذه الحقبة شيوع نظام القلاع المستقلة. أمّا العصر الأشوري الأخير، أي العصر الحديث، فيعدّ عصر القلاع العسكرية المهم عند الأشوريين. فقد شيّدت القلاع والمعسكرات في كل مكان تقريبا في طول الإمبراطورية وعرضها. وإن كان هذا لا يعني أن إقامة القلاع داخل المدن الكبرى قد استغني عنه. وقد يكون من أهم الحصون الأشورية داخل المدن الكبرى حصن الملك شلمنصر الثالث (858–824 ق.م.) في مدينة كالخو (نمرود). إنّه قصر ملكي ودار للسلاح وحصن عسكري مهم في آن واحد، وهو يقع عند الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة.

يبلغ طول هذا الحصن 350 مترًا تقريبا في حين يبلغ عرضه أكثر من 250 مترًا بقليل. وتكتنف جدرانه الأربعة أبراج ذات مقطع مستطيل يبلغ عرض كل برج منها حوالي سبعة أمتار ونصف، وتبرز عن سمت الجدار بحوالي مترين. لقد رتّبت تلك الأبراج على مسافات متساوية تبلغ حوالي سبعة أمتار ونصف.

إنّ الحصون الأشورية المستقلة لم تكن الوحيدة في بلاد الرافدين عبر ذلك العصر، فمن البديهي أن يكون البابليون أيضا على دراية كبيرة في فنّ إقامة الحصون المستقلة لما لها من أهمية بالغة في حماية دولتهم من الأخطار المتربّصة بها. ولا نريد هنا أن ندخل

---

25 – المصدر السابق، ص 198.

في تفاصيل حصون تلك الحقبة خشية الإطالة. وسوف نكتفي بمثل واحد فقط هو مدينة تكريت.

تقع تكريت في وسط العراق على نهر دجلة وعلى الحدود بين الدولتين الأشورية والبابلية. وقد اشتهرت هذه المدينة وفي جميع حقبها التاريخية تقريبا، بقلعتها وأسوارها الحصينة بدءًا من العصر الأشوري الأخير على الأقل، أي منذ القرن السابع قبل الميلاد ولغاية العصر التيموري في القرن الخامس عشر الميلادي. ونحن على دراية تامة من قوة أسوار هذه المدينة وقلعتها، حيث أنها صمدت بوجه الجيش الأشوري الذي لم يستطع اقتحامها أبدًا رغم قوته وجبروته. لقد كانت قلعتها شوكة دامية في خاصرة الإمبراطورية الأشورية الأخيرة التي انتهت بسقوطها نهائيا على يد البابليين والميديين معًا.[26]

وبسبب متانة حصون تكريت عرفت بـ(برتو) أي "القلعة" في العصر الأشوري إضافة إلى "تكريتا" وهو اسمها الأصلي. وظل هذا النعت يطلق عليها فترة طويلة جدا حيث بقي صدى الاسم أو النعت يتردد عند الكتاب اليونان ثم الرومان حتى القرن الثالث الميلادي على الأقل دون أن يفقه هؤلاء معناها.[27]

لقد أثبتت التنقيبات الأثرية التي جرت في تكريت في العقدين الأخيرين من القرن الماضي صحة هذا القول. فقد تبيّن أن الجيش الأشوري المغير لم يتمكّن من اختراق القلعة، ليس فقط بسبب تحصيناتها القوية، بل أيضا بسبب أنها قد شيّدت بفن معماري حربي خاص أتاح للمتحصّنين النيل من مهاجميهم وإيقاع خسائر كبيرة بهم ومن ثم الإحباط من عزيمتهم. إن ذلك لا يعزى فقط إلى ارتفاع الأرض التي شيّدت القلعة فوقها بل أيضا بسبب تغليف هيكلها الخارجي بجدار ساند من الحجر الكلسي الصلد. إن مثل هذا التدبير المعماري، كما يكتب الدكتور طارق مظلوم، قد جعل أمر احتلال القلعة في غاية الصعوبة.[28]

ويبدو أن مدينة تكريت ظلّت من المدن المحصّنة الهامة في العراق لآجال طويلة أعقبت سقوط الإمبراطورية الأشورية، حتى ليذكر أن الملك الساساني شابور الأول

---

26 – طارق، مظلوم، «تكريت ومكانتها، في حضارة وادي الرافدين»، **موسوعة مدينة تكريت**، بغداد، 1997 الجزء الأول، ص 119.

27 – فاروق عمر، فوزي، «كتب الأخبار العراقية القديمة شاهد على مكانة مدينة تكريت الحضارية»، **موسوعة مدينة تكريت**، الجزء الأول، ص 127.

28 – **المصدر السابق**، ص 121.

(240–272 م) حاول اقتحامها في سنة 241 ميلادية فحاصرها أربعين يوما لم يتمكن فيها من اقتحامها فتركها وعاد إلى عاصمته طيسفون (المدائن).

والواقع أن تكريت ظلّت صامدة بوجه جميع الملوك الذين حاولوا الظفر بها بعد نهاية الإمبراطورية الكلدية وصولا إلى الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى في أواسط القرن السابع الميلادي. ومما يؤكد ذلك أن الروم (البيزنطيين) قد اتخذوا من أسوارها وقلعتها خطًا دفاعيًا رئيسيًا ضدّ الجيش العربي الإسلامي المندفع نحو الشمال. ولم تستسلم مدينة تكريت لجيش الفتوحات الكبرى إلا بعد حصار دام أربعين يوما.[29] ومع ذلك يبدو أن الاقتحام لم يكن للحرب يد فيه، فقد ذكر البلاذري أن بطريك المدينة قد سلم المدينة إلى القائد العربي عتبة بن فرقد بعد أن ضمن لأهل المدينة أنفسهم وأموالهم وجميع ممتلكاتهم بما في ذلك كنائسهم وأديرتهم.[30] كان ذلك في سنة 16 أو 17 هـ (638–647 م).

لقد ظلت قلعة تكريت صامدة أمام المهاجمين لغاية القرن الخامس عشر عندما سقطت على يد تيمورلنك (771–807هـ/1369–1404م) فاستباح أهلها وهدم قلعتها وأسوارها ولم يبقِ شاخصًا منها إلا برجًا واحدًا وجزءًا يسيرًا من أسوارها لتشهد على متانة تلك الأسوار.

أما في الوقت الحاضر فلم يبقِ لنا الزمن إلا القليل من تحصينات هذه المدينة الدفاعية سواء ما يرتقي إلى تلك الحقب الواغلة في القدم أو إلى العهود الإسلامية المتلاحقة. ومن هذا القليل بقاء أجزاء من قلعتها التي تقع عند الركن الشمالي الشرقي من المدينة وجزء يسير من السور.

وقد لاحظ المنقّبون أن القلعة شيّدت فوق ربوة صخرية عالية قدّر ارتفاعها بنحو ستين مترًا، يحيط بها خندق عميق يرتبط طرفاه بنهر دجلة. ولا يزال هناك مدماك من حجارة مكعبة واحلة في موقعها الأصلي في الجزء الجنوبي من هذه القلعة. كما يشاهد في ركنها الجنوبي الغربي بقايا مدخلها المشيّد بالآجرّ والجصّ.

وإذا تركنا تكريت وشأنها نجد أن هناك العديد من بقايا القلاع المستقلة أو بقايا أسوارٍ دفاعية كانت جزءًا من تحصينات المدن الدفاعية وبخاصة في منطقة الجزيرة وأعالي نهر الفرات، شيّد أغلبها عقب سقوط الإمبراطورية الكلدية في العراق أي بعد القرن السادس قبل الميلاد.

29 – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف، القاهرة 1968، الجزء الرابع، ص 36.

30 – البلاذري، فتوح البلدان، بيروت 1983، ص 324.

ففي الجنوب شيّد السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدوني عددًا من المدن في الشرق الأدنى منها على سبيل المثال مدينة "سلوقية" التي شيّدها خليفة الإسكندر المقدوني على بلاد الرافدين وبلاد الشام، الملك سلوقس الأول في سنة 307 قبل الميلاد. وتقع خرائبها اليوم على الضفة الغربية من نهر دجلة جنوب شرق مدينة بغداد الحالية. وقد أحاط سلوقس الأول هذه المدينة منذ البداية بسور متين مشيّد باللبن ومدعوم بعدد كبير من الأبراج ذات المقطع المربع.

وهناك أيضا مدينة دورايوربس "الصالحية" التي شيّدت في القرن الرابع قبل الميلاد فوق ربوة عالية على الضفة الغربية من نهر الفرات. إنّها مدينة منيعة يحميها نهر الفرات من جهتها الشرقية كما أنها محميّة بسور متين مدعوم بعدد ليس بالقليل من الأبراج الدفاعية من الجهات الأخرى فضلا عن العديد من القلاع التي شيّدت قريبة من الأسوار من جهتها الخارجية.

يكتب المستشرق ألوا موسيل، الذي اجتاز بها في ربيع سنة 1912، أن حصونها الضخمة كانت ما تزال ظاهرة للعيان: "...وهي أبنية صفراء اللون كبيرة". وذكر أيضا أنّ قافلته أناخت جمالها عند الركن الشمالي الغربي من أسوارها. وقد أتحفنا بصورة فوتوغرافية لإحدى بواباتها التي كان يتجه الخارجون منها إلى مدينة القائم ثم مدينة عانة.

أما المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين الواقعة بين دجلة والفرات فقد برزت أهميتها إبان الصراع الطويل والمرير بين الرومان والفرثيين ثم بين البيزنطيين والساسانيين. أما الرومان فباتت لهم السيطرة على بلاد الشام بدءًا بسنة 64 ميلادية بعد أن تمكنوا من دحر الفرثيين وطردهم من ذلك الإقليم المهم جدًا. وقد وضعوا نصب أعينهم أنه من الناحية الدفاعية لا بدّ لهم من السيطرة سيطرة تامة على المناطق المتاخمة لبلاد الرافدين وذلك حتى ضفاف نهر الفرات الغربية في قسميه الشمالي والأوسط على الأقل، ليكون نهر الفرات حداً فاصلا بين الإمبراطوريتين الرومانية والفرثية. وكان لا بدّ للرومان من السيطرة على شمال بلاد الرافدين ليؤمّنوا لهم ممرّا آمنا إلى بلاد أرمينيا للسيطرة عليها بشكل تام ودائم، وفي الوقت نفسه لإيجاد قواعد ثابتة لمهاجمة الفرثيين في عقر دارهم وبخاصة في عاصمتهم طيسفون.

ومن البديهي أن تعدّ مدينة الحضر التي تقع في شمال العراق بين نهريْ دجلة والفرات على بعد 110 كيلومترات جنوب غرب مدينة الموصل، من أكثر المدن الجزرية أهمية من

الناحيتين السوقية والتجارية. وعلى الرغم من أنها قد شيّدت في منطقة أشبه بالبادية فإنه لا يتوفر فيها ما يكفي من الماء للزراعة الوافرة. ومدينة الحضر، كما هو معروف، عاصمة لمملكة عربية عرفت في المصادر الكلاسيكية باسم (عربايا) أي بلاد العرب. ولقد امتدت حدودها من ضفة نهر دجلة شرقا ولغاية نهر الفرات غربًا، ومن جبل سنجار شمالا ولغاية مدينة تكريت جنوبا.

ومع ذلك لم تتمتّع مملكة الحضر بالاستقلال التام بل بحكم ذاتي ضمن السيطرة العامة للإمبراطورية الفرثية. لقد كان لهذه الدولة حق إدارة شؤونها الداخلية أي أنها: "....مستقلة في إدارة شؤونها الداخلية وفي ممارسة حرياتها ونظمها الدينية والقومية ولها حق ضرب النقود وجباية الأموال، ولكنها مرتبطة بالمركز الفرثي في طيسفون بالدفاع المشترك عن طريق تقديم الرجال والمعدّات والمال عند الحاجة."[31]

لقد بلغت مدينة الحضر أوج مجدها في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، وإن هناك من الدلائل القاطعة على وجود مبانٍ مشيّدة بالحجارة المهندمة ترتقي إلى الحقبة السلوقية التي أعقبت اجتياح جيوش الإسكندر المقدوني إلى بلاد الرافدين بين سنتي 331–321 قبل الميلاد. ومهما يكن من أمر ذلك فإن أغلب خرائبها ومبانيها القائمة اليوم ترجع إلى الحقب التي تلت بداية العصر المسيحي. ومن الملاحظ أن قسماً كبيراً منها مشيّد بالحجارة الصلدة المهندمة والمزينة بالزخارف والتماثيل وبخاصة المعابد والمباني العامة الأخرى.

ومن الواضح أن الذي ساعد على ازدهار هذه المدينة ونموها باطراد وقوعها على الطريق الرئيس الذي يربط مدينة طيسفون في وسط بلاد الرافدين ومدينة أنطاكيا الواقعة على رأس البحر الأبيض المتوسط، كبرى مدن بلاد الشام. ليس هذا فقط بل إن أهمية هذه المدينة ازدادت عندما ظهرت أهمية موقعها الإستراتيجي من الناحية العسكرية وذلك للدفاع عن الإمبراطورية الفرثية ضد الرومان الذين كانوا طامعين على الدوام في خيرات بلاد الرافدين، وذلك منذ عهد الملك الفرثي أفراط الثالث (69–57 ق.م) وابنه ورود الثاني (57-36 ق.م.) في عهد الإمبراطور الروماني أغسطس (27 ق.م – 14م).

ولا شك في أن الذي ساعد أهل مدينة الحضر على الدفاع عن مدينتهم هو تمرّسهم في شؤون الحرب ونزعتهم إلى الحرية. وقد عَرف الحضريون فنون الهجوم والدفاع والكرّ

31 – فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس، ص 17.

والفرّ حتى أنهم ابتدعوا ما يعرف بـ"النار الحضرية" التي كانوا يقذفون بها الأعداء المهاجمين المحاصرين لمدينتهم. وقد ساعدهم في ذلك المكانة الدينية للمدينة التي جعلت القبائل تهبّ لنجدتها عند الحاجة.[32]

وبسبب الأخطار المحدقة بالحضر فمن البديهي أن يضرب حول المدينة سور متين معزّز بعدد من الحصون المُحْكمة. والحضر مدينة مستديرة قطرها حوالي كيلومترين يحيط بها سور مزدوج يتقدّمه خندق عميق تبينّ للمنقبين أنّ عرضه كان ثمانية أمتار وعمقه أربعة أمتار. ومن البديهي أن يكون السور دائري الشكل، فقد عرف الحضريون أهمية إحاطة مدينتهم بسور دائري ليسهل الدفاع عنها.

وفي سبيل تأمين تلك السيطرة عمل الرومان منذ أول سيطرتهم على المنطقة على إقامة طريق دولية جديدة تربط مدينة تدمر في سوريا بمدينة سورا على نهر الفرات. وفي سنة 107 ميلادية فتح الإمبراطور تراجان (Trajan) بعد احتلاله للمنطقة، طريقا أخرى تربط دجلة بالفرات مرورًا بالمناطق الواقعة إلى الجنوب من مدينة سنجار.

وفي عهد الإمبراطورين تكاملت حلقات الطرق الرئيسة التي تربط ميناء العقبة بمدينة تدمر ومنها الطريق الجديدة المؤدية إلى سورا على نهر الفرات. وهناك طريق أخرى جديدة تمر بمدينة سنجار في شمال بلاد الرافدين وصولا إلى مدينة بلد إسكي موصل الواقعة خرائبها اليوم على المجرى القديم لنهر دجلة.

وفي سبيل حماية هذه الطريق الحيوية البرّية الجديدة المتاخمة لبلاد الفرثيين كان لا بدّ للرومان من بناء العديد من الحصون والقلاع لتستخدم في كلا حالتي الدفاع أو الهجوم. وهكذا تم تشييد سلسلة من القلاع والمعسكرات للجيش. وقد تم تشييد تلك القلاع على الطريق، ولا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسة وأربعين كيلومترًا. إلا أن تلك القلاع والتحصينات الأخرى لم تشيّد كلها في عهد إمبراطور واحد.

والواقع أن أكثر تلك الحصون متانة وربما أهمية أقيم في عهد الإمبراطور سبتيموس سفيروس (Septimius Severus) (193–211 م.) وسفيروس ألكسندر (Severus Alexander) (228– 235م) حيث بلغ امتداد الإمبراطورية الرومانية أوجه في تلك الحقبة الزمنية.

32 – المصدر السابق، ص 18.

وتمكّن الرومان عن طريق هذه القلاع أو الواحات المحصّنة من الوصول إلى المنطقة الوسطى من العراق أكثر من مرة. وربما من أهم المدن المحصّنة في المنطقة كانت إبّان ذلك الزمن مدينة سنجار التي كانت تعرف في العصر الأشوري الأخير باسم سنكارا.[33] إن لهذه المدينة، التي ما تزال تنعم بالحياة وتحمل نفس اسمها القديم، أهمية خاصة من الناحية السوقية والعسكرية. إذ أصبحت هذه المدينة قاعدة عسكرية للرومان وبخاصة بعد حملة الإمبراطور الروماني تراجان(Trajan) (98–117م) على المنطقة عام 115 ميلادية، ولغاية حملة الإمبراطور جوليان (Jullian) في سنة 363–364 ميلادية. وقد ظلّت أجزاء كبيرة من سور مدينة سنجار الذي يرتقي إلى العصر الرّوماني شاخصة حتى يومنا هذا.

إنّ هذا السور المشيّد بالحجر المهندم والمدعوم بالكثير من الأبراج ذات المقطع المربع على نفس النمط الروماني المعروف وبعضها نصف دائري على النمط الشرقي، كانت تعلوه الشرفات المسننة التي ما يزال بعضها ظاهرا. ولقد خضع هذا السور على ما يبدو إلى الكثير من الترميم وربما التجديد وعلى الخصوص عبر العصور الإسلامية.[34] ولكن من الغريب أن المؤرخين العرب المسلمين لم يشيروا إلى أسوار هذه المدينة إطلاقا على الرغم من أنهم كثيرًا ما تطرّقوا إلى ذكر المدينة وبخاصة في النصف الثاني من العصر العباسي.[35]

ومن المواقع أو التحصينات المهمة الرومانية في المنطقة الواقعة على الطريق الكبيرة التي تربط تدمر في سوريا بشمال بلاد الرافدين أو قريبا منه موقع عرف في الوقت الحاضر باسم كفرين. إنّه حصن كبير أقرب إلى المدن الصغيرة العالية التحصين تقع خرائبها اليوم على الضفة الشرقية من نهر الفرات قريبا من موقع مدينة سورا القديم.

لقد عملت بعثة تنقيب إيطالية في هذا الموقع الذي هو أشبه بالمعسكرات الرومانية بداية من سنة 1978 ولموسمين متتاليين، وذلك في إطار الحملة الإنقاذية التي تبنّتها

33– جابر خليل، إبراهيم، «التحصينات العسكرية في العصر السلوقي والعصور اللاحقة التي سبقت الإسلام»، موسوعة الجيش والسلاح. الجزء الثاني، ص 277.

34 – المصدر السابق، ص 277.

35– من المعروف أن ياقوت الحموي واحد من أبرز من تناول في كتاباته البلدان من المسلمين فقد ركز فيما كتبه عن هذه المدينة عن معنى الاسم وما قيل فيها من شعر. ولم يتطرق إلى وصفها أو إلى أي شيء يرتبط بها من الناحية العمرانية أو السكانية. وكذلك الحال بالنسبة للأندلسي.

الهيئة العامة للآثار العراقية في المواقع الأثرية التي ستغرقها البحيرة الناتجة عن سدّ حديثة العملاق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من آثار المنطقة.

وقد تبيّن من دراسة تخطيط هذا الموقع العسكري المحصن ومواد البناء التي استعملت فيه أنه من الحصون الفاخرة حقا، مع أن محيطه لا يتجاوز خمسمائة متر. لقد كان هذا المعسكر على الأرجح خاصا بقادة الجيش الروماني في المنطقة. فمن المعروف أنه كانت هناك قريبا من كفرين العديد من المدن والمعسكرات الرومانية وغيرها التي كانت تستوجب الحماية والرعاية عن كثب.

إن تخطيط هذا الموقع قريب من المثلث وتسير قاعدته بموازاة ضفة نهر الفرات الشرقية. وقد خلا هذا الجزء من السور تماما من الأبراج، باستثناء البرجين اللذين يكتنفان المدخل الوحيد للمعسكر والذي يطل على شارع ضيق يسير بموازاة النهر. أما بقية أضلاع السور فمحمية بعشرة أبراج مربعة المسقط على النمط الروماني يبعد الواحد منها عن الآخر بحدود 12 مترا، أكبرها البرج الواقع عند الزاوية الشمالية الشرقية.

وهناك عند زاويته الشمالية الغربية من الجهة الداخلية قلعة صغيرة تحصرها أربعة أبراج ذات مسقط مستطيل. وكما هو شأن معظم القلاع فإن لهذه القلعة الصغيرة مدخل واحد يفضي إلى داخل المستوطن.

وإذا تركنا المنطقة المحصورة بين النهرين وانتقلنا إلى ضفاف نهر الفرات، وعلى الخصوص المنطقتين الوسطى والعليا، نلاحظ أن المؤرخين قد أشاروا إلى الكثير من المدن والمعسكرات المحصّنة التي لا يمكننا أن نأتي عليها جميعها في هذا البحث وإنما سوف نكتفي بالمهم جدا منها.

وكما هو معروف كانت هناك عدة مدن مسوّرة وحصون مستقلّة مهمة في هذه المنطقة، منها مدينة عانة التي يرتقي تاريخ بنائها إلى أواخر النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. وهي المشيّدة فوق جزيرة وسط الفرات محاطة بالنهر من جميع الجهات مع أنها جزيرة صغيرة لا يتجاوز طولها ألف متر وعرضها مائتان وخمسون مترًا. ولقد ظلّت عانة نابضة بالحياة وتحمل اسمها القديم نفسه حتى سنة 1986 ميلادية عندما غمرتها مياه المشروع الإروائي. وقد كانت بقايا القلعة الدفاعية وكذلك مرقبها الذي يرتقي إلى الحقب السابقة على الإسلام بل ربما يرتقي إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي من أهمّ شواخصها الأثرية. وعندما تقرّر إقامة سدّ حديثة الإروائي العملاق قرّرت الهيئة

العامة للآثار العراقية نقل هذا المرقب ونصبه مجددا بعيدا عن منطقة الغمر. لقد قطع بمناشير قديمة إلى ثمانية عشر قطعة نقلت إلى موقع قريب حيث أعيد تركيبها، وقد تكلّلت عملية إعادة البناء والتركيب بنجاح تام.

إن قلعة عانة مشيّدة بالحجارة غير المهندمة وبالجص، ويبلغ ثخن سورها الدفاعي حوالي المترين وقد كان مدعوما بخمسة عشر برجا دائري المقطع موزعة على السور بشكل غير منتظم. من هذه الأبراج برج رئيس يقع عند منتصف ضلع السور الشمالية مشيّد بطابقين. وهو أكبر الأبراج وأكثرها أهمية من الناحية الدفاعية. وفي العهد العثماني استخدمت القلعة كمقر لحاكم المدينة كما يذكر الرحّالة الذين اجتازوا بالمدينة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولم يبقَ من هذه الأبراج في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين سوى بضعة أبراج ترتقي جميعها إلى العهد العثماني.

والواقع أن القلاع والتحصينات الدفاعية في بلاد الرافدين التي ترتقي إلى عهود ما قبل الإسلام كثيرة ولا يمكن أن نتطرّق إليها جميعها في هذا البحث المقتضب، وسوف نكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها فقط. ومن أبرزها على سبيل المثال تلك القلعة التي تم الكشف عنها في جزيرة تلبيس الواقعة في وسط الفرات إلى الجنوب من مدينة عانة والتي ترقى في الزمن إلى الحقبة المحصورة بين العصر الأشوري الأخير والقرن الثاني قبل الميلاد. والقلعة هنا عبارة عن ساحة وسطية وبعض المشتملات البنائية الأخرى، ويحيط بها سور دفاعي مربع الشكل مدعوم بأبراج قوية. ومن الملاحظ إن سور تلبيس وكذلك الأبراج، مشيّدة بالحجارة الكلسية الصلدة غير المهندمة وبالجص. ولا بد من القول هنا إن هذه الجزيرة وما عليها من بقايا آثار معمارية قد غرقت تماما مع الأسف في سنة 1986 نتيجة لمشروع سدّ حديثة الإروائي.

بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من الحصون التي تسبق في الزمن العصر الإسلامي وتقع على الطريق الصحراوية التي تربط مدينة هيت أو مدينة سورا على الفرات بمدينة تدمر السورية. إنها الطريق التي كانت تسلكها القوافل بين العراق وبلاد الشام في أوقات السلم والجيوش الجرارة خلال الحروب بين الإمبراطورتين الرومانية والفرثية ثم الساسانية. من تلك القلاع واحد يعرف بقصر خباز، وهو مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه 29 مترا زوّدت أركانه بأبراج نصف دائرية، وشيّد كل ضلع من أضلاعه بالحجارة غير المهندمة وبالجص، وكذلك أيضًا القلعة المعروفة بقصر الرحبة وهي أقرب

في تخطيطها إلى المربع (38x40 م) شبيهة بحصن قصر خباز إلى درجة كبيرة، ومن المؤكد أنها ترتقي إلى حقبة زمنية متقاربة.

وهناك طبعا العديد من القلاع والمعسكرات في هذه المنطقة عموما سواء تلك التي تقع على الطريق الرومانية أو غيرها من المواقع التي لا سبيل إلى التطرّق إليها هنا جميعا.

وكما ذكرنا أعلاه فأن هذه القلاع شيّدت في العصر الروماني أو العصر الساساني، أي العصر السابق على الإسلام، إلا أن أغلبها ظل قيد الاستخدام في العصور الإسلامية اللاحقة.[36] وربما بقي البعض منها قيد الاستخدام حتى أواخر العصر العثماني.

التحصينات الدفاعية في العصر الإسلامي

ومن المؤكّد أنّ سكان شبه الجزيرة العربية كانوا على دراية واسعة بالقلاع وتحصينات المدن بالأسوار قبل الإسلام. فالسور عند العرب هو الحائط الذي يلتف حول المدينة لحمايتها من هجمات الأعداء، لذا فهو عندهم أهم الحيطان. وسمّيت المدن مسوّرة لعلوّ حائطها وارتفاعه وذلك من قول العرب: سار إذا ارتفع. ونحن نعلم أنه كان لعدد من مدنها الكبرى القديمة شأن عظيم في التحصينات الدفاعية منها على سبيل المثال تيماء وهي المدينة المسوّرة الواقعة خرائبها في الجزء الشمالي الغربي من إقليم الحجاز على مسافة مائة كيلومتر شمال شرق الحجر (مدائن صالح). ولقد كانت تلك المدينة مركزًا مهمًا من مراكز الحضارة العربية القديمة لوقوعها على الطريق التجارية القديمة التي تربط بلاد بابل بمصر ومكة والشام.[37]

وتعتبر مدينة تيماء من المدن العربية المندرسة الهائلة المؤثرة في النفس والتي ما يزال بقايا سورها العظيم المشيّد بالحجارة المصقولة الضخمة قائمًا. إنّه السور الذي يبلغ امتداد الظاهر منه اليوم أكثر من ثلاثة كيلومترات ويزيد ارتفاع الشاخص منه في بعض المواضع على أربعة أمتار. ويلاحظ أن السور مدعوم بأبراج مستطيلة المقطع وعلى مسافات متقاربة. والواقع أن السور الدفاعي لم يكن مقتصرا على عموم المدينة فقط بل أن قصورها المهمة كانت أشبه بالقلاع الحصينة المدعومة بأسوار دفاعية قوية ومحصّنة. من

36 – جابر خليل، إبراهيم، المصدر السابق، ص 302.

37 – هي المدينة التي وردت إشارات لها في المدونات المسمارية الأشورية وبشكل خاص في النصوص التي يرتقي تاريخها إلى عهد الملك تغلات بلاسر الثالث (745–727 ق.م.). ثم علينا أن لا ننسى أن الملك البابلي نبونئيد (555–539 ق.م.) كان قد أقام فيها زهاء العشر سنوات بينها وبين مدن عربية أخرى في شبه جزيرة العرب.

ذلك مثلا قصر الرضم الشهير الذي شيّد في مطاوي القرون السابقة لظهور السيد المسيح عليه السلام والذي وردت عنه الكثير من الإشارات التاريخية، وما يزال سوره المشيّد بالحجارة الضخمة المهندمة وبالجص ظاهرًا للعيان وبشكل مهيب.

ومن المدن المسوّرة المهمة الأخرى في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام مدينة ثاج الواقعة خرائبها في إقليم نجد أي في القسم الشمالي الشرقي من شبه جزيرة العرب قريبا من سواحل الخليج العربي وعلى بعد ثمانين كيلومترا غرب مدينة الجبيل الساحلية.

تعتبر ثاج مدينة مندرسة متكاملة يحيط بها سور ضخم يبلغ عرضه ثمانية أمتار وطوله أكثر قليلا من ثلاثة كيلومترات، ما يزال حوالي 2،5 كيلومترًا من امتداد هذا السور واضحًا. لقد استخدمت في بناء واجهة هذا السور الخارجية كتل ضخمة من الحجارة المهندمة والتي يبلغ طول بعضها حوالي المتر الواحد.

ويلاحظ من الصور الجوية للمدينة أن سور مدينة ثاج مستطيل الشكل أو مربع مدعوم بأبراج نصف أسطوانية رتّبت على مسافات متساوية على امتداد السور. ويلاحظ أيضا أن أبراج الزوايا أضخم بكثير من الأبراج الأخرى فضلا عن كونها أكثر بروزا من بقية الأبراج.[38] وبمجيء الإسلام كانت مدينة ثاج قد تحولت إلى بلدة صغيرة تحيط بعين ماء داخل الإقليم الذي كان يعرف قديما بالبحرين، وهو شريط الأرض المحاذي لسواحل الخليج العربي من جهته الشمالية الشرقية.

أما في العصور الإسلامية في العراق فلا نجد إطلاقا تحصينات واضحة المعالم ترتقي في الزمن إلى عهد الفتوحات أو العصر الراشدي. ومن المعروف أن أولى المدن التي مصّرت في العراق بعد الفتوحات الإسلامية كانتا مدينتا البصرة والكوفة. مصّرت الأولى في سنة 16 هـ (636 م) والثانية في سنة 17 هـ (638 م) وكلاهما كانتا خاليتيْن تماما من الأسوار الدفاعية أو القلاع.

ونحن نعلم أن مدينة واسط التي شيّدها الحجاج بن يوسف الثقفي بين سنتي (83-86 هـ/702-705م) قد أحاطها بسورين يتقدمهما خندق على رواية أسلم بن السهل الرزاز المعروف ببخشل المتوفى سنة 288هـ (900 م)،[39] أو بسور وخندقين حسب

38 - عبد العزيز، حميد، «العمارة والرسوم الجدارية في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام»، ضمن كتاب: **العمارة العربية قبل الإسلام وأثرها في العمارة العربية بعد الإسلام**، بغداد 1990، ص 89-87.

39 - بخشل، **تاريخ واسط**، ص11.

رواية ياقوت الحموي المتوفى في سنة 626 هـ (1228 م).[40] غير أن التنقيبات التي تمت هناك في أواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات من القرن الماضي لم تكشف عن أي جزء من أجزاء السور. والسبب في ذلك أنّ اهتمام البعثات التنقيبية آنذاك كان منصبًا على المسجد الجامع ودار الإمارة وغيرهما من المباني العامة والقصور.[41]

أما مدينة الموصل وهي من المدن القديمة الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة على مسافة 400 كيلومتر إلى الشمال من بغداد فكانت من المدن المسوّرة أيضا. ويذكر ياقوت الحموي أن آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد (127-132هـ/744-750م) قام بتحصين هذه المدينة في غمرة دفاعاته عن المنطقة قبيل سقوط حكم الأسرة الأموية بقليل، وإنّه بالإضافة إلى بناء السور كان أول من نظّمها وعظّمها ونصب عليها جسرًا.[42]

وفيما يتعلّق بالحصون الأموية المستقلة في العراق فلا علم لنا بأي منها في بلاد الرافدين، ربما باستثناء حصون مدينة حران التي كان آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد قد اتخذها عاصمة له. ومع ذلك فمن المؤكد أن الأمويين قد شيّدوا حصونًا دفاعية مستقلة في الأقاليم الإسلامية الأخرى وبخاصة في المناطق الواقعة على الحدود بين بلاد الإسلام والإمبراطورية البيزنطية، وفي المدن التي تعرف بالثغور التي كان يرابط فيها على الدوام الكثير من الجند المتطوّعين للدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين.

ليس هذا فقط بل أن الأمويين أقاموا حصونا حتى في المناطق داخل الأقاليم التابعة لهم. من ذلك مثلا ما يعرف اليوم بقصر الحير الشرقي قرب تدمر وكذلك قصر الطوبى الواقع على بحيرة طبرية في الأردن والذي ينسب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96 هـ/715-725م) وغيرهما من القلاع والحصون.

غير أن الأمر تغيّر منذ أوائل العصر العباسي تقريبا. فنحن نعلم من المصادر التاريخية المتيسرة أن بغداد مدينة السلام والتي عرفت أيضا بالمدينة المدوّرة التي مصّرها أبو جعفر المنصور (136-158هـ/ 754-775م) بين سنتي 145-149 هـ كانت من المدن المحصّنة تحصينًا قويًا.[43]

40 - ياقوت، الحموي، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص 350.

41 - فؤاد، سفر، واسط الموسم السادس للتنقيب، القاهرة 1952، ص 8-4.

42 - ياقوت، الحموي، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص 223.

43 - كان موقع هذه المدينة من مدينة بغداد الحالية هو في الجانب الغربي منها بشكل مؤكد، ربما بين مفرق مدينة الكاظمية الحالية وموقع ما يسمى اليوم بجسر الأحرار.

لقد رتّبت دفاعاتها البنائية العسكرية وفق تخطيط دقيق ومحكم ووضعت تصاميمها بعناية بالغة وقبل الشروع بالبناء بأمد معقول من الزمن. فقد ذكر لنا الطبري أن مخطّط المدينة قد رسم على الأرض في نفس الموقع بالرماد ليشاهد الخليفة المنصور ذلك المخطّط قبل الشروع بحفر الأسس.[44]

إنّ مدينة المنصور كما هو معروف تامة الاستدارة ولذلك عرفت عند القدامى من المؤرخين بالمدينة المدوّرة. ولا شكّ في أن السبب في الاستدارة هو الزيادة في متانة وقوة التحصينات الدفاعية.

كان يحيط بالمدينة سوران دفاعيان،[45] يتقدم السور الخارجي منها خندق تسكت المصادر القديمة عن قياساته مثل العرض والعمق. ويرى الأستاذ كريسويل أنّ عرضه ربما كان بحدود ستة أمتار.[46]

وقبل أن نسترسل في وصف التحصينات الدفاعية في مدينة بغداد المدوّرة نرى لزاما علينا أن نذكر أنّ الزمن لم يبقِ لنا أي جزء من تلك التحصينات. ونذكر في هذا الصدد أن جامعة بغداد قد أجرت حفائر منظمة للبحث في آثار مدينة بغداد المدوّرة في أوائل السبعينيات من القرن الماضي. وقد كشفت تلك التنقيبات عن عدد من الدور السكنية الرائعة التخطيط ترتقي في الزمن إلى عهد المنصور والخلفاء الثلاثة أو الأربعة الذين أعقبوه، إلا أنّها لم تحظَ بالكشف عن أي جزء من أسوار المدينة المدورة أو الخندق الذي يتقدمها.[47]

وعلى ذلك فنحن مضطرون هنا إلى أن نعتمد في وصف تلك التحصينات على ما كتبه المؤرخون والبلدانيون في العصر العباسي وبخاصة كل من أحمد بن وضاح اليعقوبي المتوفى في سنة 285 هـ (897م)، وأحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى في سنة 463 هـ (1071م).

44 – الطبري، المصدر السابق، الجزء السابع، ص 618 .

45 – هناك سور ثالث كان الغرض منه عزل القصر ودواوين الدولة وقصور أولاد المنصور فضلا عن المسجد الجانع، ولا نعرف الكثير عن ذلك السور العازل.

46 – Creswell, K. A. C."**Early Muslim Architecture**, Vol. 2, p.1.

47 – حميد، عبد العزيز، حفائر مدينة بغداد المدوّرة.

يتّفق المؤرخون أنه كان هناك سوران دفاعيان يحيطان بالمدينة ولكننا لا نعلم شيئا عن مواصفات السور الخارجي منهما، أي السور الذي يطلّ على الخندق مباشرة. والظاهر أنه كان أقلّ ثخنًا وارتفاعًا من السور الداخلي الذي ينعته أحمد بن واضح اليعقوبي بالسور الأعظم.[48]

ومهما يكن من أمر ذلك فإن كلا السوريْن الداخلي والخارجي قد شيّدا باللبن العظام. ولا بد أن كليهما كان مدعومًا أيضا بعدد كبير من الأبراج للتقوية أو للدفاع.[49] يذكر اليعقوبي بالنسبة للسور الأعظم أنّ المنصور "جعل عرض أساسه 90 ذراعا بالسوداء (45 مترا تقريبا) ثم ينحطّ حتى يصل في أعلاه إلى 25 ذراعاً (5,12 أمتار)، أما ارتفاعه فكان 60 ذراعاً مسافة (30 مترًا) بما في ذلك الشرفات." [50]

كان لهذا السور أربعة مداخل مدوّرة، أي أن لكل مدخل منها بابان، يفضي الباب الخارجي منها إلى قاعة أو حجرة يواجهه الداخل إليه في الجدار المقابل باب آخر ولكن هذا الباب ليس على محور واحد مع الباب الأول، فالداخل من الخارج لا بد وأن يتجه إلى الشمال أو إلى اليمين قبل أن يدخل إلى المدينة من الباب المقابل. لقد كان كل واحد من هذه المداخل يحتل جهة من الجهات الأربعة. يذكر اليعقوبي أن المسافة بين الباب والآخر خمسة آلاف ذراع، أي حوالي 2500 متر، في حين يذكر الخطيب أنها ميل عربي واحد: أي حوالي 4000 متر.

ولا بدّ أن تكون على هذه المداخل أبواب من حديد متينة جدا. يكتب اليعقوبي عن هذه الأبواب أنه كان: "لا يغلق كل باب ولا يفتحه إلا جماعة رجال..."[51]

ولا لزوم هنا للدخول في تفاصيل أكثر بخصوص تحصينات مدينة المنصور المدوّرة لأنها معروفة لنا جميعًا. غير أنه لا بدّ من القول إن أسوار مدينة الرقة الواقعة خرائبها اليوم قرب نهر الفرات داخل الحدود السورية قد شيّدت تقريبا على غرار تحصينات المدينة المدوّرة. ومن حسن الحظ أن الزمن قد ترك لنا واحدا من مداخلها الذي كان يعرف بباب بغداد. ويلاحظ أن المدخل يكتنفهُ برجان نصف دائريين.

---

48 – أحمد بن واضح، اليعقوبي، كتاب البلدان، طبعة ليدن 1892، ص 231 .

49 – طاهر مظفر، العميد، بغداد مدينة المنصور المدوّرة، بغداد 1967، ص 217.

50 – المصدر نفسه، ص 231.

51 – المصدر نفسه ، ص 231.

إنّ هذا المدخل يرتقي على الأرجح ليس إلى عهد المنصور بل إلى عهد الخليفة هارون الرشيد (170–193 هـ/786–809 م) الذي أجرى تجديدات كثيرة على أسوار هذه المدينة. فمن المعروف أن الرشيد قد اتخذ من مدينة الرقة عاصمة صيفية له. وإن كان من يرى من العلماء المحدثين أن باب بغداد هو من إنجازات السلطان الأتابكي نور الدين بن محمود بن زنكي (541–569هـ/1146–1173 م). وبالنسبة إلى تحصينات المدينة فقد بقي لنا أيضا جزء يسير من أسوارها المشيّدة كلها بالآجرّ المفخور.

ومن الحصون المهمّة جدا في العراق التي ترتقي إلى عهد المنصور أيضا أو عهد خلفه المهدي (158–169هـ/775–786 م) واحد يقع على بعد 152 كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة بغداد يعرف بحصن الأخيضر ويعتبر واحدًا من أعظم وأكبر الحصون التي خلّفتها لنا العصور الوسطى، ليس في العراق فحسب بل في العالم أجمع. حتى ليكتب المستشرق والمتخصص في العمارة الإسلامية الأستاذ كريسويل إن الداخل إلى هذا الحصن ليشعر أن الذين أقاموا صرحه هم ليسوا من بني البشر بل الجن أنفسهم.[52]

إن اسم "الأخيضر" اسم حديث ربما أطلق عليه لاخضرار المنطقة في موسم الأمطار في الشتاء والربيع، حيث شيّد في منطقة منخفضة من الأرض تتجمّع فيها المياه وتتدفّق من قربه السيول في موسم الأمطار مما يساعد في كثرة نمو الحشائش في ذينك الموسمين. والغريب أن المؤرخين المسلمين في العصـــر العباسـي لم يشيروا إلى هذا الحصن إطلاقا. وإنّ أول من ذكره بهذا الاسم من الرحالة الأوروبيين كان الإيطالي بيترو ديلا فالا (Pietro Della Valla) الذي اجتاز به في سنة 1625 ميلادية، وذكر لنا أن عرب البادية كانوا يطلقون عليه اسم قصر خفاجة.[53]

والحصن مشيّد بالحجارة غير المهندمة وبالجص، إنه في حالة ممتازة من الحفظ بسبب وقوعه على طرف ما يعرف ببادية السماوة بعيدا عن التجمّعات السكّانية. إنه ذو تخطيط مستطيل يحيط به سور دفاعي متين مستطيل قريب من المربع طوله من الشمال إلى الجنوب 175 مترًا ومن الشرق إلى الغرب 169 متراً، مدعوم بأربعة وأربعين برجا ذات مقطع نصف دائري، أربعة منها كبيرة تحتل الزاوايا الأربع للحصن والأربعون الأخرى

52 - Creswell, **Op**. **Cit**. vol. 2, p. 211.

53 - علي محمد، مهدي، الأخيضر، بغداد، 1969.

من الطراز نفسه ألا أنها أصغر حجمًا، وهي موزعة بالتساوي على الجدران الأربعة من جهاتها الخارجية.

يبلغ ثخن هذا السور أربعة أمتار تقريبًا في حين يصل ارتفاعه في الهواء إلى تسعة عشر مترًا بما في ذلك طول الشرفات المسنّنة التي كانت تعلو السور. وتنحصر بين كل برجين من الجهة الخارجية حنيتان يتوّج كل منهما عقد نصف دائري، تتوسط باطن كل واحدة منهما فتحتان مستطيلتان تستخدمان لسكب السوائل الملتهبة أو الساخنة جدا على رؤوس الجنود الأعداء. ومن الناحية الداخلية للسور هناك سلسلة من الحنايا المتصلة لا يفصل بينها إلا بوابات السور.

ومن الملاحظ أن السور، بعد ارتفاع يصل إلى 5,11 أمتار، ينقسم إلى جزءين: خارجي وداخلي يحصران بينهما ممرًا علويًا يصل عرضه إلى مترين، والسور مسقّف بقبوة نصف أسطوانية الشكل. ويلاحظ أن الجدار الداخلي لذلك الممر المطل على الأقسام الداخلية من الحصن فتح فيه عدد كبير من النوافذ لإدخال النور منها إلى داخل الممرّ. في حين أن جدار الممرّ المطلّ على الخارج يضم أعدادًا كبيرة جدا من المزاغل الشاقولية مرتّبة في صفٍ متوازٍ على طول السور من جهاته الأربع. أما المزاغل الأفقية التي تعلو الحنايا الخارجيةً فإن موقعها هو في أرضية هذا الممرّ الدفاعي.

ويلاحظ على هذا الحصن أنه في منتصف كل ضلع من هذه الأضلاع الأربعة يوجد برج كبير نصف دائري يتوسّطه مدخل ذو بابين داخلي وخارجي. يؤدّي الباب الخارجي إلى حجرة مربّعة مسقفة بقبوة نصف أسطوانية الشكل فيها سلسلة من الفتحات الأفقية تستخدم لرمي المقذوفات الساخنة جدّا على رؤوس الأعداء الذين قد يتمكنون من الدخول إليها بعد اختراق الباب الخارجي أو اجتيازه.

أمّا المدخل الرئيس الذي يقع في منتصف السور الشمالي فإنه أكثر تعقيدا من المداخل الثلاثة الأخرى، إذ يضم إلى جانب كل ذلك أبوابًا خشبية منزلقة من الأعلى إلى الأسفل لا يستطيع رفعها أو خفضها إلا مجموعة من الرجال وبطرق معقّدة جدّا. يذكر الأستاذ كريسويل أنّ هذا النوع من التقنيات الدفاعية بالنسبة للحصون لم تعرف في أوروبا قبل القرن الرابع عشر.[54]

54 - Creswell, Op. Cit. p. 193.

وهنا إلى الغرب من حصن الأخيضر يوجد حصن صغير مستطيل الشكل قريب من المربع (26x25م) يعرف اليوم بقصر عطشان يقع بين الأخيضر والكوفة، وعلى الرغم من أنّ كرسويل يعتبره بناءً قريبًا من الخان إلا أنّ تحصيناته الدفاعية تجعلنا نعتقد أنه حصن كان الغرض من بنائه الكشف عن تحركات الأعداء في المنطقة. وعلى الرغم من أن حصن عطشان لا يختلف من حيث التصميم كثيرا عن حصن قصر خباز أو الرحبة أو غيرهما من الحصون التي ترتقي إلى القرون القليلة التي سبقت الإسلام، إلا أنّ المختصّين في العمارة الإسلامية وعلى رأسهم كريسويل، يرون أنه ربما يرتقي إلى القرن الثاني الهجري أي الحقبة الزمنية نفسها التي شيّد فيها حصن الأخيضر لأسباب تتعلّق بالعناصر المعمارية التي لن ندخل في تفاصيلها خشية الإطالة.[55]

وإذا تركنا حصن الأخيضر وشأنه، وتقدّمنا قليلا في التاريخ نلاحظ أن مدينة سامراء التي شيّدها الخليفة العباسي المعتصم بالله في سنة 221 هـ (836م) كانت على أهميتها البالغة غير مسوّرة بل ليس فيها قلاع إطلاقا. ربما يعود السبب في ذلك إلى أنّ الدولة العباسية كانت في أوج عزّها وقوتها عصرئذ ولم تكن تخشى من أن يهاجمها أحد.

غير أنه في أول سنة 251 هـ (865 م) عندما ظهرت خلافات حادة بين الخليفة آنذاك المستعين بالله مع قادة الجيش من الأتراك اضطر معها إلى ترك عاصمته سامراء واللجوء إلى العاصمة القديمة بغداد فوجئ بأن وجد أن معظم أجزاء بغداد وبخاصة الشرقية منها لم تكن محميّة بسور أيضا، فاضطر والحالة هذه إلى تشييد سور جديد.

ولقد أفادنا الطبري أن الخليفة أمر قائده محمد بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد «فأدار عليها سورًا ضخمًا منيعًا مشيّدًا بالآجرّ والجصّ فصار سور المستعين وكأنه حاقة تحيط بمدينة بغداد بجانبيها الشرقي والغربي.»[56] وقد أحاط بالسور في كلا جانبي المدينة خندق عريض يأخذ ماءه من نهر الصراة القريب.

لم تشرِ المصادر التاريخية المتيسرة إلى طول السور أو ارتفاعه أو عدد الأبراج التي تدعّمه، ومع ذلك فلا بد من أن يكون عريضًا وقويًا. فقد أفادتنا المصادر التاريخية أنه كانت قد نصبت المجانيق والعرادات في أعلاه. كما أن السور كان بلا شك عاليا، ونحن نعلم من مجريات الأحداث التي وقعت إبان الحصار، أن العديد من الجنود المهاجمين

55 - Creswell, K. A. C., **A Short Account of Early Muslim Architecture**، Beirut, 1968, p 202.

56 - الطبري، المصدر السابق، الجزء التاسع، ص 286.

حاولوا التسلّق إلى أعلاه بواسطة الحبال والسلالم الخاصة بالحصار لكنهم لم يفلحوا في ذلك.

أما بالنسبة إلى مداخل السور فقد ذكر أنه كان في الجانب الشرقي من بغداد ستة أبواب وفي الجانب الغربي سبعة. فيكون مجموع البوابات ثلاثة عشر بوابة، إلا أنّنا لا نعلم شيئا عن تخطيط تلك البوابات.

ولا بدّ من أن يكون سور المستعين متينًا وقويًا، إذ على الرغم من أن جيش سامرّاء فرض حصارًا دام سنة كاملة على بغداد تقريبًا إلا أنه لم يستطع اقتحامه. فجرت مفاوضات اضطر معها الخليفة المستعين بالله إلى خلع نفسه من كرسي الخلافة لصالح الخليفة الجديد المعتز بالله (251–255هـ/866–869 م).

إن سور بغداد هذا على ما يبدو لم يدم لأمد طويل ولا ندري على وجه اليقين كيف اختفى هذا السور من الوجود. وهناك من المختصّين من يعتقد أن زواله كان بسبب الفيضانات العظيمة التي تعرّضت لها بغداد في ربيع سنة 330 هـ (942 م) حتى أن مياه الفيضانات قد تدفّقت داخل مدينة المنصور المدوّرة وأدّت إلى انهيار أجزاء كبيرة من أسوار المدينة المدوّرة نفسها.[57]

وفي سنة 488 هـ (1095 م) بدأ الخليفة العباسي المستظهر بالله (487–512هـ/1094–1118م) في بناء سور جديد عظيم حول مدينة بغداد. وقد احتفل البغداديون عند البدء ببناء السور الكبير غير أنه لم ينجز بسبب صعوبات كانت خارجة عن إرادة الدولة، فلم يكتمل إلا في عهد الخليفة المسترشد بالله وذلك في سنة 517 هـ (1123م). ولقد كان هذا السور يحيط بالجانب الشرقي من المدينة فقط.

وبعد إنجاز بناء السور الذي شيّد بالآجرّ والجصّ حفر حوله خندق واسع، وقد جعل بينه وبين السور مسناة قوية للحيلولة دون تأثّر السور بالرطوبة. لقد وصف السور عدد من الرحالة الذين زاروا بغداد عربًا وأجانب، وكان الرحالة بنيامين التطيلي من أوائل هؤلاء، فقد زار بغداد في سنة 565 هـ (1169 م) وإن لم يشر إلى السور بشكل مباشر إلا أنه ذكر أن استدارة بغداد تبلغ عشرين ميلاً عربيًا أي أكثر قليلا من أربعين كيلومترًا.[58] إنه يشير بذلك على الأرجح إلى طول السور نفسه وفي ذلك بلا شك شيء من المبالغة.

57 – مصطفى، جواد، وأحمد سوسة، **دليل خارطة بغداد المفصل**، بغداد 1958، ص 49.

58 – بنيامين، التطيلي، **الرحلة**، (مترجم) بغداد 1945، ص 139.

في حين أنّ الرحالة فيتاحية الذي زار بغداد بعد بنيامين بعشر سنوات ذكر أن استدارة بغداد كانت مسيرة ثلاثة أيام، ولا شكّ أنّ في قوله أيضا شيئًا من المبالغة، ومما يؤكّد مبالغته فيما يذكره من أنه شاهد في بغداد بابًا من النحاس البرّاق (لاشك أنّه يقصد بذلك أحد أبواب المدينة) ارتفاعه مائة ذراع وعرضه عشرة أذرع، عليه من الصور ما ليس بالمستطاع أن يصنع نظيره. وحدث أن سقط منه مسمار فلم يستطع أحد إعادته في مكانه. وبلغ من شدّة بريق نحاس هذا الباب أنّ الخيل كانت تجفل عند اقترابها منه لانعكاس صورها عليه. ولذلك اضطر المشرفون عليه إلى غسل النحاس بالخل فذهب بريقه، غير أنّ جزأه الأعلى ظلّ على بريقه السابق.[59]

في أواسط القرن التاسع عشر وضع المهندسان الإنجليزيان فيليكس جونس وكولين وود خارطة لمدينة بغداد التي تعدّ من أوضح الخرائط الدقيقة للعاصمة العراقية. فالسور المشيّد بالآجرّ والجصّ مطابق إلى حد كبير لما رسمه كارستن نيبور الدانماركي قبل ذلك بنحو مائة عام. وقد ذكرا أن طول السور يبلغ زهاء عشرة كيلومترات، وهذا يؤكد أيضا مبالغة الرحالة فيتاحية.

والسور كما جاء في خارطة نيبور وفليكس جونس مدعوم بثمانية وتسعين برجًا، عشرة منها من النوع الكبير إلا أن معظمها أصغر حجمًا، كلها ذات مقطع نصف دائري. إن من الأبراج الكبيرة المهمة التي ورد ذكرها في أحداث الحصار الذي فرضه المغول على بغداد برج ضخم كان يقع عند الزاوية الجنوبية الغربية من السور يقال إن الشيخ الزاهد عبد القادر الكيلاني (ت 561 هـ/1166 م) كان يجلس عنده. وكان هولاكو قد وجه عددًا كبيرًا من منجنيقاته على هذا البرج وتمكّن من إحداث ثلمة كبيرة فيه فدخل منه، وعلى أثر ذلك سقطت بغداد بيد المغول.

وقد أفادنا نيبور أيضا أن السور كانت تزيّنه من جهته الداخلية سلسلة مستمرة ومتتابعة من الحنايا الطويلة التي تنتهي في أعلاها بعقود مدبّبة، إن تلك الحنايا الداخلية تذكرنا بالحنايا الداخلية الخاصة بسور حصن الأخيضر الذي سبقت الإشارة إليه.[60]

كان لسور بغداد الأخير أربع بوّابات أو مداخل فقط، موزّعة على الجهات الأربع الرئيسة تقريبا. كان من أهمها مدخلها الذي كان يعرف بباب الحلبة ثم عرف في العهود

59 – فيتاحية، الرحلة، ص 73ب.

60 – نيبور، كارسن، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة الدكتور محمود الأمين، ص 31 .

المتأخرة بباب الطلسم بسبب وجود صورة منحوتة على الحجر فوق المدخل لرجل متربّع وعلى كل من يُمنته ويُسرته صورة لأفعى عظيمة، وعند العامة كان ذلك طلسمة لحفظ بغداد. لقد نسف الجيش التركي مع الأسف هذا المدخل عند مغادرتهم لبغداد نهائيا في سنة 1917. والباب الثاني وهو الباب الأعلى سماه الناس بباب السلطان ثم عرف في العصور الأخيرة بباب الأعظم وقد هدم في العشرينيات من القرن الماضي. وهناك أيضا باب البصلية الذي عرف في العهود المتأخرة بالباب الشرقي، وقد هدم في الثلاثينيات من القرن الماضي.

ولم يبقَ من هذه المداخل اليوم سوى مدخل واحد كان يعرف في الأصل باسم باب الظفرية نسبة إلى المحلّة الواقعة عند هذا المدخل من الجهة الداخلية، وهو يعرف اليوم بالباب الوسطاني. وقوام هذا المدخل برج ضخم أسطواني الشكل يرتفع عن سطح الأرض المجاورة بأكثر قليلا من أربعة عشر مترًا. ينقسم من جهته الداخلية إلى ثماني حنايا كبيرة مرتفعة تنتهي في أعلاها بعقود مدبّبة. يقع الباب الخارجي للبرج داخل إحدى الحنايا الواقعة في مواجهة الشمال الغربي. ويتصل المدخل من الخارج بقنطرة كانت في الأصل قد شيّدت فوق الخندق الذي يحيط بسور بغداد.

ومن ناحية أخرى داخل البرج فتح المدخل الداخلي الذي يؤدي إلى قنطرة أخرى تفضي إلى داخل المدينة يحفّ بها جداران ثخينان لهما علوّ كبير فتحت فيهما مزاغل شاقولية عديدة. وهذا المدخل من النوع المزوّر، أي أن الباب الخارجي ليس على محور واحد مع الباب الداخلي.

ولم يتبقَّ أيضا من السور سوى أجزاء يسيرة تقع قريبا من ضفة النهر الشرقية داخل مجمّعات وزارة الدفاع العراقية الحالية.

ومن البديهي أن تكون عديد المدن في بلاد الرافدين معزّزة بالأسوار الدفاعية فضلا عن القلاع المستقلة. ولا يسعنا هنا إلا أن نأخذ على ذلك مثالين: المثال الأول هو مدينة الموصل.

نعم لقد كان للموصل عند الفتح بعض الحصون المسوّرة كما يذكر الطبري إلا أنّ أول من ضرب حولها سورًا محكمًا كان سعيد ابن عبد الملك عندما كان واليًا عليها في عهد أبيه عبد الملك بن مروان في سنة 65 هـ (684 م) ثم قُوّي السور وأصلح من شأنه في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد. وعلى ذلك فإن ما يكتبه ياقوت الحموي في

أن أول من بنى على الموصل سورًا كان مروان بن محمد غير صحيح.[61] ثم هدم هارون الرشيد سور سعيد في سنة 180 هـ عندما ثارت الموصل عليه.[62] وبقيت الموصل بلا سور حتى سنة 474 هـ (1081 م) حيث قام شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي بإحاطة المدينة بسور قليل الارتفاع. وفي عهد السلاجقة جدّد السور وحفر أمامه خندق. ثم زاد في إحكام السور السلطان عماد الدين زنكي في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ولم يبقَ لنا من هذا السور في الوقت الحاضر سوى القليل، وواحدة من قلاعه الكبيرة في حالة شبه خربة تعرف باسم "ياش طابية" وهي كلمة مركبة تركية تعني القلعة الرئيسية.

وخشية الإطالة ليس بوسعنا أن نتطرّق إلى التحصينات الدفاعية في بلاد الرافدين عموما سواء ما أقيم منها في النصف الثاني من العصر العباسي أو في الحقب الزمنية التي أعقبت العصر العباسي وبخاصة في الحقبة الزمنية الطويلة التي رضخت فيها بلاد الرافدين إلى الاحتلال التركي العثماني والتي تجاوزت الأربعة قرون.

---

61 – ياقوت، الحموي، معجم البلدان، الجزء الخامس، ص 223.

62 – البلاذري، فتوح البلدان، ص 328.